٥٧٣ ﴿العينطوريني﴾ الشماس انطانيوس ابن الشيخ ابي الخطار الشدياق من بيت الحاج عبدالنور من قرية عين طورين من جبة بشري. صنّف تاريخاً خطّ في ٢٠ شباط ١٨١٩ . منهُ نسخة حسنة في مكتبتنا الشرقية ونسخة اخرى عند الخوري المارونى راعي قاع الريم. ضمّنهُ مؤلفهُ فوائد شتى عن اعيان لبنان واديرتهِ الخ

(لها بقية)

# الاب برزدوس ڤون اليسوعي الانكليزي

(١٨٤٧—١٩٢٢)

بقلم الاب رفائيل غله اليسوعي

في صباح ٣١ تشرين الثاني من العام المتصرم فاضت روح راهب يسوعي انكليزي طبّق صيتُ فصاحتهِ ولاسيما فضيلتهِ وحنانهِ نحو صغار القوم كلَّ ارجاء بريطانية العظمى بل كلَّ البلاد الناطقة بالانكليزية من الولايات المتحدة غرباً الى الهند شرقاً ومن اسكتلندة شمالاً الى رأس الرجاء الصالح جنوباً . لعمري قلّما وُجد على ظهر البسيطة في الاعصر المتأخرة رجلٌ حظي بمثل ذلك النفوذ العجيب على ملايين من ابناء وطنه والاجانب ، نفوذٌ ذو صبغة دينية محضة كما يليق براهب وقف حياتهُ على خدمة الله عز وجلّ والانفس المفتداة بدم مخلّص العالم

ذلك الرجل العظيم بين اعاظم الرجال هو الاب برزدوس ڤون توفي بلندن عن ٧٥ عاماً قضاها في عمل الخير ودعوة الناس الى الصلاح . فانتشر منعاه كالبرق الخاطف في كل انحاء تلك العاصمة الحاوية ضمن حدودها نحو ستة ملايين من العباد . بل كُتب ذلك الخبر الفاجع بخطّ غليظ على اوراقٍ كبيرة أُلصقت في شوارع المدينة . ثم ان كلّ الجرائد الانكليزيّة — ومَن يحصيها ؟ — نشرت فوراً بين الملإ بلهجة الاسف الشديد نبأ الرزء الفادح الذي اصاب انكلترة جمعاء بفقد واحد من اعظم

واشهر ابنائها. كل هذه الظروف النادر اجتماعها في حياة ووفاة شخص واحد ولو من علية القوم قد استنهضتنا لكتابة بضع صحائف في سيرة ذلك الرجل العظيم لما فيها من العبرة لكل معتبر والبنيان الصالح لكل كاثوليكي. سنبسط الكلام اولاً في حياة الفقيد وثانياً في اسرار فصاحته الرائعة ممه ونختم المقال بصحيفة موجزة في ذكر بعض فضائله

## ١ سيرة الاب ڤون

﴿اسرته﴾ وُلد برنردس ڤون ( Vaughan ) في ٢٠ ايلول ١٨٤٧ بجزيرة جرزي (Jersey) من عائلة كريمة الحسب والنسب تُعدّ من اشرف واقدم العائلات الشهيرة في انكلترة. وهي من بقيّة الأُسر التي ثبتت بين الانكليز على ايمانها الكاثوليكي وحفظتهُ على توالي اجيال الجور والاضطهاد. امتاز والده الكولونيل ڤون بمآثره في حرب القرّيم. امّا والدته فكانت آيةً في التقوى والعطف على الفقراء والحنو نحو اولادها الاربعة عشر وكان برنردس الحادي عشر بينهم. ومن العجب العجاب ان تلك الامّ المُثلى طالما التمست من رب الجلال ان يستخص بخدمته ابناءها الثمنة وبناتها الخمس. وما هو اعجب من ذلك ان الاله الرحوم استجاب تلك الصلاة السامية فقد ترهّبت في الواقع كل بناتها وانقطع لخدمة المولى كل البنين الّا واحدًا منهم. والبكر منهم هو هربرت الذي تنازل لاخيه الرابع عن حقوق بكرئيته وارتقى فيما بعد الى منصب كردينال ورئيس اساقفة وستمنستر. واخوه الاول صار رئيس اساقفة سِدْني في أُسترالية. وانتظم الرابع في سلك الاكليروس العالمي فمات برائحة القداسة. ولا يزال اصغرهم في قيد الحياة وهو حاضرًا اسقف سِبَسْتوپوليس. فايم الحق ان مثل تلك العائلة لجديرٌ بان يُخلّد على صفحات التاريخ بل في سويداء القلوب!

﴿نشأته﴾ كانت والدة برنردس شديدة العناية بتربية اولادها وترسيخ خطواتهم الاولى في طريق الفضيلة الوعرة. ذكر ابنها عنها قائلًا: «كانت تأتي الى غرفتنا قبل رقادنا ليس بالفواكه وضروب الحلوى بل بافكار الله. وبدلًا من قصص الجنيّات كانت تروي لنا سير القديسين. وكانت تُدني مرارًا ساعتها من اذني وتقول: «اسمع

صوت حركتها لكنَّ هذا الصوت سيهدأ يوماً وكذلك قلبك سيقف ايضاً عن الخفقان . فحينئذ ستذهب الى السماء ان عشتَ صالحاً » . وكانت تلقّنني هذه الابتهالات التقويّة : « يا يسوع الحلو اني أُهبك قلبي وروحي . يا مريم القديسة كوني لي والدةً . يا ملاكي الحارس العزيز اسهر عليَّ نهاراً وليلاً »

قال ايضاً عن والدته السامية المواطف : « قد اعتادت في زياراتها للفقراء ان تكِل اليَّ حَمل ما أعدَّ لطعامها من الحساء فتوزعهُ عليهم . وكثيراً ما كانت تُلح على المساكين ليَدَعوها ان تنظف مساكنهم وترتّب أُسرَّتهم . وكانت تعتبر كل أجرانها بصفة اخوة واخواتٍ لها ! »

﴿دروسه﴾ هكذا نشأ برزدس تحت كنف تلك الام المسيحية الكاملة ولمَّا آن الاوان أدخلهُ ابواه مدرسة اليسوعيين الخاصَّة باشراف الانكليز في ستونيهرست (Stonyhurst) فتلقى فيها العلوم مدة سبع سنوات . وفيها اظهر من اول وهلة شخصيَّتهُ الفريدة وسليقتهُ المطبوعة على الاستقلال في كل شيءٍ . مثالُ ذلك ان احد التلامذة سألهُ عند دخوله في المدرسة عن اسمه فاجابه فوراً بدون ادنى تردد : « اسمي برزدس ڤون وفي نيتي ان اصير يسوعياً » . واثناء سني دراسته لم يَبدُ منه ميلُ الانكليز الشديد الى الالعاب الرياضيَّة بل كان جُلّ مبتغاه ان يخلو بنفر من خلّانه فيتجاذب واياهم اطراف الحديث فيقضي معهم زمن الراحة بالفكاهات والاخبار المطربة . وكان يمتاز بين اقرانه ببراعته العجيبة في التمثيل ولا يزال ذكرهُ حيّاً حتى يومنا في مسرح مدرسة ستونيهرست

﴿الراهب﴾ ترهّب برزدس في اواخر سنة ١٨٨٦ فكان مع حرصه على العمل بكل قوانين الرهبنة اليسوعية الطلفَ المبتدئين حديثاً واخفّهم روحاً واشدّهم بشاشةً وطرباً . فكانت صفاته هذه تحببهُ الى رفاقه بل تجذبهم جذباً لطيفاً الى خدمة الله بنشاط وفرح . وقد حفظ الى النسمة الاخيرة من حياته ميلاً شديداً الى الفاكهة السارَّة التي لاغبار عليها . ومن فكاهاته انه تزيَّا ذات يوم بزي راعٍ بروتستاني ودخل في دير من اديار الآباء اليسوعيين على احد الرهبان لاخوته الطاعنين في السنّ فاجاله هذا في كل انحاء الدير كانّهُ غريب حتى بلغا باب الدير فعرَّفهُ بنفسه وتعانقا مقهقهَين

﴿الاستاذ﴾ بعد سيامة الاب ڤون كاهناً في ١٨٨٠ ارسله الرؤساء الى مدرستنا

الواقعة في ضواحي لندن واسمها مدرسة بومنت (Beaumont College) يتهذب فيها اولاد اشرف العائلات الكاثوليكيّة. فحدث اثناء اقامته هناك ان احد المجانين اطلق النار على الملكة ڤيكتوريا فلم يصبها فاسرع الاب ڤون الى القصر الملكي الكائن على مقربة من المدرسة وقدّم لجلالة الملكة تهانئ تلامذتنا لسلامتها من ذلك الخطر العظيم. فبلغ تأثرها من ذاك اللطف الى انها تنازلت وزارت المدرسة فاستُقبلت بما يليق لمثلها من الكرامة والاجلال وقد عادت تلك الزيارة على الرئيس والتلامذة بفوائد لا تُحصى فاصبحت تلك المدرسة المشرّفة بزيارة اعظم ملكات الارض بل ملوكها في عداد اشهر المدارس الانكليزية. وكان الفضل في كل ذلك لفطنة الاب ڤون ورقّة شعوره

﴿ الرئيس والواعظ ﴾ أُرسل المترجَم سنة ١٨٨٣ بصفة خادم رعيّة الى احدى كنائس منشستر وفي ١٨٩٣ عُين رئيساً لمدرستنا هناك. فكان في تلك الاعوام يرقى المنبر كل يوم أحد تقريباً فتتألب الجماهير لاستماع اقواله الخلاصيّة الرائعة البلاغة

وفي اثناء سنة ١٨٩٥ القى عشر محاضرات في حقوق الكنيسة الكاثوليكية تفنيداً لمزاعم الاسقف البروتستاني مورهَوز فكان لها رنّة شديدة في كل انحاء البلاد، مع ندرة الامر بين قوم معروفين بالسكينة وبرودة المزاج. وقد بلغ تحمّس الحاضرين في احدى هذه الخطب الى ان قام نفرٌ منهم وحلّوا حصان عربته التي ركبها والحّوا عليه في ان يجرّوه بمركبته الى محلّ اقامته

وفي السنة ١٨٩٧ القى عظات الصوم الاربعيني في احدى كنائس رومة. فلمّا سمعه احد الكرادلة قضى العجب من فصاحته النادرة وحرارة لهجته فهتف: « لا غرو ان هذا الاب ولد في بحيرة البركان ڤازوڤ ثم بعثهُ الله الى انكلترة ليبرد فيها !»

ودُعي سنة ١٨٩٨ الى جنوبيّ فرنسة فالقى فيها مواعظ عديدة في انحاء شتى. وفي ختام احدى عظاته سبق واعلم الحضور بنيّته في ان يحدّثهم يوم الاحد التالي عن القديسة مريم المجدليّة. فبلغ الخبر سامع امير وَلس وليّ عهد انكلترة الذي صار بعد ذلك ملكاً وعُرف بادوار السابع وكان يقضي الصيف في تلك الجهات فارسل شخصاً من حاشيته الى الاب يسألهُ: «هل يزعجك حضور الامير عظتك على المجدلية فان هذا الموضوع يميل اليه كل الميل ؟». فاجابه الاب ڤون وفي جوابه من الجراءة

وحرّية الفكر ما فيه : « قال لسموّه اني وعظت ١٨ سنة امام سلطان السلاطين فهيهات ان يقلقني امير وَلس ! » ثم رجع الرسول في الأسبوع التالي وقال للواعظ : «قد ارتاح الامير كل الارتياح الى عظتك فهو يلتمس نسخةً منها ليطبعها ويوزّع نسخها على اصدقائه » فلم يرَ الاب ڤون مندوحةً عن الرضوخ لرغبة الامير الذي نشر العظة كما قال

ثمّ سمع وليّ العهد بعد ذلك عظةً القاها اليسوعيّ على آلام المسيح . فقال له : «ابتِ لا بدّ لي من مصافحتك فان هذه اجود موعظة سمعتها في حياتي وقد جنيتُ منها نفعاً لنفسي» . هكذا نشأت وثبت المودة الحقيقية بين الاب ڤون وامير وَلس فكان هذا يستدعيه حيناً بعد حين الى القصر الملكي ليحظى بأنسه ويستفيد من حكمته وحنكته . ولما خلف والدته الملكة فيكتورية على العرش لم يغيّر شيئاً من دالّته هذه على الراهب اليسوعي . ولا يزعمنّ القارئ ان الاب ڤون كان يستميل قلب العاهل العظيم بشيء ولو يسير من التملق . بل كان بعكس ذلك يرشده الى التوبة عن آثامه وتقويم ما اعوجّ من آدابه . ففي ذات يوم كانا ماشيين معاً فتوقّف ادوار السابع وقال له فجأةً : «ايها الاب ڤون انك تقول لي اشياء لا يجسر احد غيرك على قولها لي ولذلك أُحبّك »

﴿الاب ڤون في لندن — خطيب الجماهير﴾ أمر الابّ ڤون رؤساؤه سنة ١٩٠١ ان يسكن احد اديرتنا في لندن فبقي هناك الى آخر حياته العاملة . فما لبث ان اشتهر فيها اذ نشرت احدى الجرائد البروتستانية سنة ١٩٠٢ الاكاذيب والشتائم الماسّة بشرف الرهبنة اليسوعية . فانبرى الاب ڤون للدفاع عنها ورفع الدعوى على الجريدة الخسيسة فحكم عليها مجلسُ القضاة بغرامة ثلاثمائة ليرة انكليزية فندّد بمثل ذلك المبلغ نفقات المحاكمة

وكان صيت الاب ڤون يزيد كلّ يوم انتشاراً فيتسابق الاساقفة الى استدعائه . ففي اواخر ١٩٠٤ سافر الى رومة بصفة واعظ مخصوص ليعظ اثناء احتفالات اليوبيل الذهبي لاعلان عقيدة الحبل بلا دنس

وفي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ القى سياق مواعظ على « خطايا المجتمع » فاهتزّت لها كلّ طبقات الشعب ولاسيما العليا . وقد نُشرت بعد ذلك وطُبعت ١٤ طبعةً حتى يومنا

هذا. فكان على مثال يوحنا المعمدان الذي بجسارة متقدة أنّب هيرودس على فجوره. وهكذا رفع الاب فون صوته في تلك المواعظ وقرّع اكابر الانكليز رجالاً ونساء، على سيئاتهم المحجوبة بين جدران القصور والمستورة بثيابهم الناعمة وعلى نقائصهم الظاهرة لكل الاعين الداعية للمنة طبقات الشعب الدنيا لهم . فكنت ترى اعضاء اشرف العائلات ، الكاثوليك بل البروتستانت انفسهم ، يبادرون الى استماع اقواله الرشيدة على صرامتها والبليغة على بساطتها الصادرة من اعماق فؤاده الملتهب بحب الانفس والمرشوقة كالسهم الصائب الى قلوب سامعيه . وقد صدق فيه المثل القائل : ان من القلب الى قلب دليلاً .

في ١٩٠٨ طفق الواعظ الشهير يخطب في فضائل ومآثر القديسة حنة درك التي كاد لها الانكليز الف مكيدة ، كما هو معلوم ، واخيراً اعدموها بالنار . فيتضح من ذلك ان في اختيار هذا الموضوع الماسّ لشرف الامة البريطانية جسارة عظمى لم يكن ليُقدم عليها سوى الاب فون وكان وقتئذ اشهر من نار على علم ليس في بلاده فقط بل في الخارج ايضاً . وقد كان لعظاته على القديسة الفرنسية الشهيرة وقعٌ عجيب في افئدة سامعيه . واذ خطب يوماً في هذا الموضوع على جماعة عديدة من السيدات الشريفات سكبت جميعهن الدموع الغزيرة اثناء خاتمة كلامه

وفي ١٩١٠ دُعي رسمياً ليعظ امام الالوف من المؤمنين الواردين من كل اقطار العالم لحضور المؤتمر القرباني الدولي في مُنتريال (كندا) . وبعد ذلك بقليل نمني في اواخر ١٩١١ باشر سياحته الكبرى الى الولايات المتحدة واليابان والصين فاستغرقت ثمانية عشر شهراً والقى في خلالها نحو اربعمائة خطبة وكان يخطب غير مرة على آلافٍ من الحضور . ففي طوكيو عاصمة اليابان القى محاضرة على تلامذة الأشراف . وفي شنغ هاي بالصين فاه بعدة خطب في دار البلدية امام الجماهير المحتشدة لاستماعه . وكان مدة سياحته في الولايات المتحدة ، اذا ركب القطار ، رأى مخبري الجرائد والمجلات يهجمون عليه هجوماً في كل المحطات الكبرى وكثيراً ما كان يشاهد جمّاً غفيراً منتظراً وصوله في هذه المحطات ومشتاقاً احرّ الاشتياق الى التمتع باقواله الرائعة والاستفادة منها . فلم يكن للزائر الشهير مندوح من تلبية دعوة هذه الجماهير فانهكت قواه تلك الخطب المتعددة فضلاً عن اتعاب ذلك السفر الطويل

﴿الاب فون في اثناء الحرب – يوبيلهُ الذهبي﴾ لم تخمد اثناء سني الحرب المشؤومة الجمرةُ المتأججة في قلب رسول المسيح بل زادت اجيجاً في تلك الاعوام العصيبة. فكنت تراه في الشوارع وارصفة محطات السكك الحديدية فضلاً عن الكنائس والنوادي والمسارح يلقي بأن التحمس خطبه الشديدة اللهجة في ضرورة مواصلة القتال للدفاع عن حقوق الوطن المقدسة المدوسة تحت اقدام الالمان. وكان اذا بلغ انكلترة نعيُ الابطال الساقطين في ساحة الشرف ينبري بطيبة خاطر لتأبينهم تنويهاً بوطنيتهم السامية وتعزيةً لاقربائهم المفجوعين

وفي كانون الاول ١٩١٦ احتفل بيوبيله الذهبي فهطلت عليه التهانئ وابلةً من كل طبقات الشعب الانكليزي بل من كل اقطار العالم. واتته رسالة من قداسة الحبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر الخالد الذكر يقول فيها: « من صميم فؤادنا نشكر نعمة المذبح المتقل لئلا تُعاق عن تقديم ذبيحة خلاصنا من اجل ذاتك ومن اجل الكنيسة كلها ». وكتب اليه الرئيس العامّ لليسوعيين رسالة تهنئة مقرونة باهداء نيّة خمسين قداساً

﴿ايامهُ الاخيرة﴾ على ان وطأة الشيخوخة – وكان قد جاوز السبعين – ما زالت تشتدّ ثقلاً عليه والأرق المتواتر ومرض البول السكّري ما زالا يزعزعان بنيته القوية حتى هدما اركانها. فوصف له الاطباء مباشرة سياحة طويلة الى رأس الرجاء الصالح ترويحاً لباله وتغييراً للهواء. على انهم حظروا عليه القاء الخطب حرصاً منهم على البقية الباقية من قواه. فانتصح بنصيحتهم بيد انه لم يتمالك ان يخطب على الجماهير في بعض الظروف. فقبل مبارحته لمدينة الكاب تكلم على قداسة الزواج امام نحو ثلاثة آلاف شخص منتمين الى كل الاديان

فمع هذه الاشغال لم تأتِ السياحة بالفائدة المرغوبة. ولمّا عاد الى الوطن أُصيب بضرب من الفالج فأرسله الرؤساء الى دير الابتداء في لندن. فقضى اشهره الاخيرة على فراش الآلام وهو يكاد لا يُفلت من يده ليلاً ولا نهاراً المصلوب الذي اهداه اياه قداسة البابا بيوس العاشر. وفي صباح ٣١ تشرين الاول ١٩٢٢ تناول القربان الاقدس كعادته وكان ارائذ مالكاً شعورهُ ولم يعترِهِ برهن شديد. وبعد نحو ساعة فاضت روحه الطاهرة العالية فانتقل الى رحمة مولاه بغاية الهدوء والطمأنينة ذلك

الرجل الذي لم يكن اسقفاً ولا اختصاصياً بالعلم لكنه عُرف في كل اصقاع البلاد الناطقة بالانكليزية وأُممها المختلفة كرجل الله ومحب البشر وصديق الفقرا ومرشد الاغنيا، والواعظ البليغ الفريد المثال

## ٢ الخطيب المصقع والراهب الغيور

نرى في تحرّي اسرار فصاحة الاب فون فائدةً غير يسيرة فمن تتلمذ لذلك الاستاذ في فن البلاغة أخذ عنه،ولا بدّ،شيئاً من مقدرته الغريبة على التصرف بقلوب سامعيه وإمالتها الى ما يشاء، وحبذا الفنّ اذا استُخدم لحضّ العباد على انواع الخير والفضيلة!

ان في الصحائف الآتية دليلاً ساطعاً على عجيب فصاحة الاب فون، والحق يقال انه لفي مقدّمة ائمة الخطباء الذين تبجّل بهم الدهور. من يحصي آلاف الناس الجاهلين طريق أيّة كنيسة بل نفس الدين المسيحي الذين كانوا يسرعون مع ذلك الى عظاته في وسط الشوارع تحت القبة الزرقاء! دُعي مرّةً لوضع حجر الزاوية بكنيسةٍ شُرع في بنائها من مدّة. فجرى هذا الاحتفال على ارتفاع البناء نحو ستة امتار فوق سطح الارض بجوار سقائل البنّائين المنكبّين على اشغالهم مع مساعديهم غير المنفكين عن الذهاب والاياب لتأدية خدمتهم. فانتصب الخطيب وحوله حلقة من السامعين لا تزيد عن نحو ٢٥ شخصاً وخطب في ضرورة تشييد البيوت ولاسيما بيوت الله. فترقّى في اساليب البلاغة واجاد وابدع وتحمّس فصدق فيه مثلنا القائل: ان من البيان لسحراً. ففي ظرف بضع دقائق زالت جلبة البنائين واعوانهم فكانوا جميعهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية كأنّ على رؤوسهم الطير. بل وقفت عن السير عربات الترامواي وصعد كثيرٌ من الركّاب الى اعلى سقوفها لئلا تفوتهم لفظة واحدة من دُرَر ذاك الواعظ المفوّه

ومع كل ذلك لم يكن الاب فون من الكتبة المتضلعين من اساليب الانكليزية والمتفننين في التعابير الانيقة المبتكرة بل كان في كثير من الاحوال يعدل عن مثلها الى التعابير السوقيّة المنفيّة من القواميس، الدارجة فقط على ألسنة رعاع الشعب. وكثيراً ما شدّد عليه النكير اخوانه اليسوعيون في هذا الشأن فلم يعبأ بانتقاداتهم لاعتقاده ان انجع وسيلة لاجتذاب الشعب الى الدين والصلاح ليست لباقة الكلام

بل بساطته ووضوحه وبالاجمال قربه الى الافهام . ولذلك كان هو ، مع انهُ سليل احدى اشرف العائلات ، يخاطب سفلة القوم بالفاظ هي ذات الفاظهم المألوفة بينهم ، فيوهمهم انه منهم ومولودٌ بين اظهرهم . فيفتحون له ابواب قلوبهم على مصراعيها ويشربون اقواله شرباً ولاسيما بعد ايقانهم انها صادرة عن فؤاد ملؤه الحبّ لهم والحنان على انواع بلاياهم والغيرة الشديدة على مصالحهم الابدية فضلاً عن الزمنية

ثم انه كان يتحاشى دائماً بسط الحقائق الدينية والادبية على نمط فلسفي عميق بعيد عن اذهان العامة بل كان يكسوها ثوباً قشيباً فتّاناً من التشابيه الظريفة غير المبتذلة وينعشها بحرارة عواطفه الحماسيَّة المضطرمة ، فتخفق افئدة السامعين بنفس خفقات فؤاده ، فكأنه العوّاد الماهر الذي يُخيَّل لنا ان اصابعهُ الرشيقة تتلاعب ليس باوتار عوده بل باوتار القلوب . فسبحان الوهّاب العظيم !

كان مبلغ ثوران عواطف الاب فون اثناء عظاته — خصوصاً في بعض الظروف الداعية الى ذلك — يكاد يفوق التصوّر . حينئذٍ كان على اثر نزوله من المنبر يُلقي جسمه المضطرب المنهوك على فراشه بعد خلع ثيابه المبلّلة بالعرق الصبيب .

ثمَّ لا يخفى على احد ان بين مزاج الاطفال الادبيّ ومزاج المتقدمين سنّاً من عامة الناس شبهاً غريباً . فكلا الفريق مولع بالقصص ولاسيما الغريبة والمتنوعة الحوادث . وقد انتبه الاب فون الى ذلك فكانت عظاته المشبعة مشحونةً بمثل تلك الروايات الآخذة بمجامع القلوب . ولم يكن فقط قصّاصاً لا نِدَّ لهُ بل كان ذا قريحة عجيبة التمثيل (١ فمن سمعه يحكي حكايةً توهَّم انه يشاهد كل الحوادث جاريةً امام عينيه وكل الاشخاص متحرّكةً قدّامهُ . ولا بدع فان الخطيب كان يظهر امامك بمظهر كلّ من هؤلاء الاشخاص ويقلّد نبرات صوتهم وتقلّبات محيّاهم حسب الظروف وحركات جسمهم وسكناتهم وكيفيَّة كلامهم وسكوتهم . فكان بمقدرته هذه المدهشة

١) اراد الاب فون قبل كونه ان يتمّم فنّ الالقاء على احد الاساتذة في هذا الفنّ السير . فطلب هذا اليهِ ان يُلقي امامهُ قطعةً من محفوظه ليقف على استعداده فقبل الراهب . ولمَّا انتهى كلامه هتف المعلّم : « وايمُ الحق انك لأمهرُ مني ! »

ومن الامور الشائقة في لندن ان كبار المحامين والمحامات كانوا يحضرون عظات الاب فون ليأخذوا عنه بعض فنّ الغريب في التصرّف بنبرات صوته وجعلها موافقة لما يريد ايصاله الى القلوب من الافكار والعواطف

يرتقي بسامعيه ارتقاء سريعاً بغير عنف الى عالم الحقائق الدينية على طريق الحكايات الشائقة الكثيرة المعنى الوافرة المغزى

زد على كل الصفات السابقة الذكر النادر اجتماعها حتى في اعظم الخطباء انه كان لا يحجم في بعض المواقف عن التذرع بالفكاهات المستحسنة المؤدية به الى ضالته المنشودة . ففي ذات يوم كان يكشف القناع عن غباوة احد الزنادقة المنكرين وجود الباريء عز وجلّ . فصرخ فجأة : « اني أومن بوجود الاله الذي خلق المستر ولز ( اسم الزنديق ) وليس بوجود الاله الذي خلقه المستر ولز (يعني إله الماديين اي الطبيعة ) » . مرة اخرى كان يشدد النكير على الملابس النسائية الخلاعية فقال في درج كلامه : « في الزمن القديم كانت عادة المرأة ان تلبس ثوباً خاصاً لتناول العشاء . اما الآن فانها تتعرى فتسبب الدمار لجسمها وروحها بل لروح القريب ! »

تلك هي المزايا الجوهرية لبلاغة الاب فون بلاغة لم يكتسبها من مطالعة الكتب بل كانت متأصلة في غريزته فأنماها وأوصلها الى اوج الكمال بطول الممارسة والاختبار ومعاملة الناس . بلاغة لا تفسح له مكاناً رفيعاً بين الادباء بيد انها تجعله في مقدمة فطاحل الخطباء القادرين حتى ارتجالاً على هز اوتار القلوب في اي مكان واي موضوع وبين ايّة طائفة من الناس . فمن قابل بين نوعي البلاغة المشار اليهما اتضح له من اول وهلة ان الثانية اعجب واندر من الاولى بدون قياس وإن لم تجارها في لباقة الكلام

## ٣ لمحة من فضائل الاب فون

يليق بنا بعد تلخيص سيرة الاب فون والبحث عن اسرار فصاحته ان نذكر شيئاً من فضائله السامية فانهُ لم يكن خطيباً مفقهاً فقط بل راهباً قديساً . كفى شاهداً على ذلك تواضعه العميق واستخفافه بذاته مع انه كان من اعاظم الرجال المشار اليهم باطراف البنان . بينما كان الناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم لساناً واحداً في الثناء على بلاغته الرائعة كان يقول عن ذاته : « اني كلبُ الراعي (يعني المسيح) ليس الا . فيقول لي الربّ : يا برزدس اجمع الخراف حولي . فأركض هنا وهناك وانبح لآتي بها الى قدمي الرب . فيقول لي : قف يا برزدس . فأعود الى حجرتي »

في ايامه الاخيرة قال له احد القوّاد : « لقد سلكت في الحياة مسلكاً جليلاً ، يا ابتِ ، وسعيت كثيراً في خدمة الله » فاجاب والدموع ملء عينيه : « بل ان حياتي مشحونة بالنقائص على اني اثق برضى الله عني! »

هذا ولم يسبقه احد من اخوانه الرهبان في دقّة قيامه بكل اوامر ونواهي القوانين الرهبانية . وكان يحبّ كل اخوته اليسوعيين محبة اخوية محضة ويبذل النفس والنفيس في خدمتهم ويُظهر لطفاً خصوصيًّا لأدناهم مرتبةً ومواهب . اما حبّهُ للفقراء وصغار القوم فقد ضُرب به المثل في كل انحاء انكلترة . رأى مرةً جماعة من الفقراء ذوي الثياب الرثّة المكتظين في مؤخر الكنيسة لاستماعه في حين ان الاغنياء كانوا مرتاحين وعلى الرحب فوق المقاعد . فدعا الفقراء الى الدخول في الخورس ، نعني في المجال الفاصل بين المذبح وماندة التناول . فحقّق اذ ذاك قول السيد المسيح « ويصير الاولون الآخرين والآخرون الاولين »

كثيراً ما كان الاب فون يُلقي المحاضرات ليحثّ المثرين على بذل اموالهم في سبيل المدقعين فجمع من اجل هؤلاء مبالغ طائلة على هذا النسق . وقد اعتاد اثناء سكناه في لندن على الاقامة نحو يوم كلّ اسبوع في محلٍ استأجره في احد افقر احياء العاصمة . فكان يخرج منه لاباً كثيرة وبطرشيلاً وامامه غلامٌ حامل مصلوباً كبيراً وبيده جُرَيس يدقُّهُ لجمع الفقراء الذين لا شغل لهم ولا شاغل . فمتى صادف مكاناً مناسباً وكّز فيه المصلوب وطفق يبشر هؤلاء السذج والمحتقرين باسمى الحقائق المسيحية . ثم يعود الى مسكنه الضيّق ويطبخ بيده طعامه ويرجع في الغد الى ديره والى اشغاله المعتادة . والله وحده يعلم كم من النفوس ارشدها باتعابه هذه الى جادّة الخلاص الابدي . فمن العجب العجاب ان الاب فون كان في آن واحد اشهر واعظٍ لعلية القوم ولرُذالة الناس . بل الأعجبُ ان الفريقين كانا بدرجة واحدة أسيرَي فصاحته المستولية على كل القلوب

اخيراً ان الحجة الدامغة على قداسته انه كان يُعلي طول حياته بخشوع وتقوى لا مزيد عليهما فكم وكم رآه اخوته اليسوعيون يجول في ممشى الدير ذهاباً واياباً وحبّات مسبحته الطويلة تتعاقب بين اصابعه وهو غائص في بحر التأمل باسرار الفداء السامية ! وكان في تقدمته الذبيحة الالهية كانه على المنبر إذ يلفظ كل اقوال القداس

بحرارة شديدة ويشفيها بالحركات الليتورجيَّة الدالَّة مع بعض الافراط على اتّقاد عبادته

خلاصة القول ان الاب فون لم يكن فقط رجلًا عظيماً قديراً في اعين الناس بل راهباً قديساً في عين ربّ الناس. وان كانت العظمة الاولى تضمن له الخلود في صفحات التاريخ فان الثانية قد استحقَّت له اكليلًا لا يذوي الى الابد في ملكوت السماوات.

# شعراء النصرانية بعد الاسلام

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

## ١١ حُجَيَّة بن المُضرِّب الكندي

هكذا كتب اسمهُ صاحب الاغاني (٤ ١١٧—١١٨ و٢١: ١٤) وضبطهُ بتقديم الجيم المضمومة على الحاء المفتوحة. وفي الاشتقاق لابن دريد (ص ٢٢٢) كُتب حُجَيَّة بتقديم الحاء على الجيم ومثلهُ في حماسة ابي تمَّام (ص٥٢٢) وفي نوادر ابي زيد (ص٥٣ و٧٧). وكذلك رووا «المضرَّب» بفتح الراء المشدَّدة. كان حُجَيَّة من اهل اليمن من بني تنيرة من حيّ السكون من كندة جاهليًّا ادرك الاسلام. وكان يدين بالنصرانيَّة كما شهد عليهِ صاحب الاغاني (٢١: ١٥). وقد روى لهُ هناك اخباراً قليلة يؤخذ منها انهُ عاش الى ايام عمر بن الخطَّاب. ويؤخذ منها ايضاً ومن نوادر ابي زيد (ص ٥٣) انهُ كان لحُجَيَّة اخوان مَعْدان ومنذر وكانت امرأتهُ زينب من بنات عمهِ لهُ ولد منها يدعى حَوْطاً. وقال التبريزي في الحماسة (ص ٦٨): «ويكنى ابا حوط وهو شاعرٌ جاهلي وفارس مقدام حليف في بني ابي ربيعة بن ذُهل بن شيبان»

وقد افتتح ابو الفرج الاصبهاني اخبار حجيَّة بقصَّة القاسم بن محمَّد بن ابي بكر